المحاضرة الرابعة:نظريات التأثير المعتدل : نظرية الغرس الثقافي - نظرية وضع الأجندة-الاستخدامات والاشباعات

1. نظرية الغرس الثقافي:

تعتبر نظرية الغرس الثقافي إحدى أكبر النظريات التي تتعامل مع أثر وسائل الإعلام على الفرد والمجتمع من زاوية واسعة جدا لأنها تأخذ في حسبانها (القيّم الثقافية) أثناء تحليلها للأثر الذي تحدثه وسائل الإعلام والمحتويات الإعلامية[1].

وتعتبر هذه النظرية من أكبر النظريات التي اهتمت بتفسير ظاهرة العنف الإعلامي ودور الإعلام في معالجته وهو من الأسباب الرئيسية التي ساهمت في ظهور المقترب النظرية، أين يعود ظهور نظرية الغرس الثقافي إلى نهاية الستينات وبداية السبعينات كمنظور جديد لدراسة أثر وسائل الإعلام في الولايات المتحدة إثر الهاجس المتصاعد حول تأثيرات العنف التلفزيوني ومبادرة الحكومة الفيدرالية إلى توضيح الموضوع، حيث شكّل الرئيس جونسون لجنة تضطلع لمعرفة أسباب العنف وكيفية اتخاذ تدابير وقائية ضده وبذلك تم توجيه الباحث إلى القيام بدراسات مستفيضة حول كمية العنف وشكله في وسائل الإعلام والتلفزيون خاصة[2]، وبذلك بدأت جهود بعض العملاء تتوجه نحو دراسة هذا الأثر الإعلامي للتلفزيون، ومن أكبر الباحثين الذين طوّروا هذا المنظور الباحث الأمريكي جورج جربنر GERBNER من خلال مشروعه الخاص بالمؤشرات الثقافية cultural indicators ويهدف هذا المشروع إلى إقامة الدليل الأمبريقي على تأثير وسائل الإعلام على البيئة الثقافية.

وعكف جربنر ومعاونوه على وضع إستراتيجية ميدانية لدراسة رواكز العنف التلفزيوني على معتقدات الأفراد وعلى صياغة نموذج نظري حول هذا الموضوع، استمر عمل الفريق لمدة أعوام عديدة، حيث كان ينشر تقريرا علميا شاملا في نهاية كل عام من البحث، وجاء في تقارير جربنر ومعاونوه أن الواقع الإعلامي يمكن أن يمارس تأثيرا على

---

[1] فريال مهنا: علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، دار الفكر، دمشق، 2002، ص 265.

[2] محمد بن سعود البشر: قصور النظرية في الدراسات الإعلامية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، عدد 83 لسنة 2003، جامعة الكويت، ص 26.

المعتقدات وبالتالي على السلوك ووصفت التقارير هذه الآلية تشكل تيار مهيمن "Mainstreaming" فيما يتعلق بالتلفزيون[3].

اهتمت بحوث جربنر بثلاث قضايا متداخلة هي:

1- دراسة الهياكل والضغوط والعمليات: التي تؤثر على إنتاج الوسائل الإعلامية.

2- دراسة الوسائل والقيم والصور الذهنية التي تعكسها وسائل الإعلام.

3- دراسة الإسهام المستقل للرسائل الجماهيرية على إدراك الجمهور للوقائع الاجتماعي[4].

أ-مفهوم الغرس الثقافي:

يمكن تعريف عملية الغرسCultivation على أنها غرس وتنمية مكوّنات معرفية ونفسية تقوم بها مصادر المعلومات والخبرة لدى من يتعرض لوسائل الإعلام وهو مصطلح يشير إلى أن النظرية تحاول تفسير الآثار الاجتماعية والمعرفية لوسائل الاتصال خاصة التلفزيون، ومفهوم الغرس يشير إلى عملية أوسع بكثير من التنشئة الاجتماعية.

كما يعرف أيضا الغرس الثقافي بأنه ما تفعله الثقافة المنبعثة من الوسيلة وهو لا يعني بالرغم من أن الثقافة هي الوسيلة الرئيسية التي يعيش فيها الناس وفيها يتعلمون فالغرس نادرا ما يحدث تغيرا إلّا بين الأجيال وأنماط الحياة، فالغرس يعني المساهمة بالرغم من أنها غير معزولة، والمساهمة التي تتفقد مع السبيل الرمزي من الصور والأشكال التي ينقلها التلفزيون ثم تحدث عمليات معّقدة من التنشئة واكتساب ثقافة المجتمع بعبارة أخرى مفهوم الغرس يصف إسهامات التلفزيون وكافة وسائل الإعلام في مفاهيم وإدراك المهور للواقع الاجتماعي[5]. ويأخذ مفهوم الغرس بعدا ثقافيا أي ينمي الإعلام في الفرد معتقدات وسلوكيات ثقافية تنبع من ثقافة المجتمعات لذا يأخذ الغرس الثقافي وهو ما تفعله الثقافة في مجتمع ما فالثقافة هي الوسيلة الأساسية التي تعيش فيها الإنسانية وتتعلم وتداخل في الثقافة مجمل الفنون والعلوم والدين والمهارات والصور الذهنية والحكايات والموسيقى والغناء وتتيح بذلك الصور الذهنية التي يعكسها التلفزيون وتعميمات لدى الأفراد عن البيئة الإنسانية من خلال بناء رمزي Symbole structive والثقافة عبارة عن نظام من الرسائل

---

[3]فريال مهنا، مرجع سابق، ص 265.

[4]حسن عماد مكاوي، ليلى حسن السيد: مرجع سابق، ص 299.

[5]مرفت الطرابيشي، عبد العزيز السيد: نظريات الاتصال، دار النهضة العربية، القاهرة، 2006، ص 304.

والصور الذهنية التي تنظم العلاقات الاجتماعية وتعيد إنتاجها، فهي تقدم لنا طبيعة الأدوار التي ينبغي أن تقوم بها من خلال النوع، العمر، الطبقة الاجتماعية والمهن، كما لنا نماذج من الشخصيات والاتجاهات والأفكار التي تميزنا وتحدد خصائصنا، وتساعد على القيام بسلوكيات واعية أو غير واعية وتساعدنا في الحكم على الأشخاص غير المعروفين لنا لتجعل منهم أشخاصا إما تتفق معهم أولا نعجب بهم أولا، فالثقافة تنظيم رمزي تنمي لدينا مفاهيما للخبرات والأولويات والقيم والعلاقات، وتستنبط من خلالها المعايير السائدة لما هو معهم وما هو أقل أهمية، لما هو مفيد وهو غير مفيد....الخ.

وتمدنا الثقافة بمعلومات عن كيفية التعرف حيال المواقف المختلفة، فالثقافة هي السياق الذي تصبح فيه التجارب واعية وهي نظام من القصص والأشياء المصطنعة Artéfacts يزداد إنتاجها بشكل جماهيري وهي تتوسط بين الوجود وعي الإنسان بهذا الوجود وبالتالي تسهم في كلاهما[6].

وبذلك يؤكد Morgan على أساس أن نظرية الغرس الثقافي هي نظرية ثقافية في المقام الأول وأن هدفها هو تحديد المدى الذي يمكن لرسالة معينة أن تساهم به في إدراك مفاهيم الواقع الاجتماعي بطريقة متشابهة لتلك المفاهيم التي تحملها هذه الرسالة، وعليه فإن الغرس هو ذلك الإسهام المستقل والمحدد الذي تسهم به وسائل الإعلام فيعمليتي التنشئة الاجتماعية والتثقيف فالثقافة هي تنظيم بغرس وينمي في الفرد كل ما هو مركب للثقافة[7].

ب- الركائز الأساسية لنظرية الغرس الثقافي:

إن الفكرة الأساسية التي توم عليها نظرية الغرس الثقافي هي أن تأثير وسائل الإعلام شمولي وعام وأن مواقف الناس تجاه قضايا معينة يطرأ عليها نوع من التغير مع مرور الوقت، وهذا التغير يتفق مع المضمون الذي تجسده الرسالة الإعلامية وكما يؤكد Singlitary , Stone حول النظرية: "إن الأفراد الأكثر استخداما لوسائل الإعلام هم أكثر أفراد المجتمع عرضة لتبني التصورات التي تقدمها لهم وسائل الإعلام عن القضايا المثارة"[8].

---

[6]حسن عماد مكاوي، ليلى حسن السيد: مرجع سابق، ص 301.

[7]مرفت الطرابيشي: مرجع سابق، ص 305.

[8]محمد بن سعود البشر: مرجع سابق، ص 26.

وتفترض هذه النظرية أن تأثير التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى على الجمهور تفترض أنه كلما يقضي الناس وقتا أطول في التعرض لوسائل الإعلام فإنه يتشابه إدراكهم للواقع الاجتماعي مع ما تعرضه وسائل الإعلام.

وهذه الصور والأفكار المقدمة غالبا ما تختلف عن بيانات العالم الحقيقي، وعلى ذلك يدرك الذين يتعرضون لوسائل الإعلام لفترات طويلة للعالم بشكل مختلف عما يدركه الذين يتعرضون بدرجة أقل لتلك الوسائل[9].

كما تعتبر نظرية الغرس الثقافي من النظريات التي تؤثر على المدى البعيد في ثقافة الجمهور وسلوه وعندما تذكر هذه النظرية فإنها تؤكد محاولات الكبيرة لـ George Gerbner دي دراسته للتلفزيون بقوله: "إن التلفزيون وسيلة من وسائل الإعلام الحديثة قد احتل مكانة مهمة في حياة الناس اليومية وسطر على تصوراتهم للعالم من حولهم، وإن الواقع الذي يقدمه لهم تفوق على ما يكتسبونه من خلال تجاربهم الشخصية أو غيرها من الوسائل التي تمكنهم من فهم العالم الذي يعيشون فيه كما يرى جربنر أن الواقع المتجسد في الرسالة التلفزيونية يختلف عن الحقيقة التي يعيشها الناس ولكن التعرض المستمر لها يؤدي إلى تبنيها وللتسليم بأنها تعكس واقع المجتمع الحقيقي[10].

وتربط النظرية –كما قلنا سابقا- بين كثافة التعرض ومشاهدة التلفزيون واكتساب المعاني والمعتقدات والأفكار والصور الرمزية حول العامل الذي تقدمه وسائل الإعلام بعيدا عن العالم الواقعي الحقيقي، فمشاهدة التلفزيون تقود إلى تبني اعتقادا حول طبيعة العالم الاجتماعي وتأكيد الصور النمطية ووجهة النظر المنتقاة التي يتم وضعها في الأخبار والأعمال التلفزيونية، وقوة التلفزيون لتمثل في الصور الرمزية التي يقدمها في محتواه الدرامي عن الحياة الحقيقية التي يشاهدها الأفراد لفترات طويلة والتأثير في هذا المجال ليس تأثيرا مباشرا، حيث يقوم أولا على التعلم، ثم بناء وجهات النظر حول الحقائق الاجتماعية بحيث يمكن النظر إلى أنها عملية تفاعل بين الرسائل والمتلقين[11].

وعموما، فالنظرية تقوم على عدة ركائز نلخصّها فيما يلي:

---

[9] مرفت الطرابيشي: مرجع سابق، ص 305.

[10] MCQUAI, D: within the benefit of hadsightm reflection on uses and gratifications research, civitical studies in mass communication, vol 4, 1987, pp 283- 284

[11] محمد عبد الحميد: نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، ط2، عالم الكتب، مصر، 2000، ص 263.

أولا- التلفزيون وسيلة متميزة عن وسائل الإعلام الأخرى: إن التلفزيون وسيلة متميزة عن كل وسائل الإعلام الأخرى فهو الوسيلة الوحيدة التي تدخل البيوت لمدة تزيد عن 7 ساعات يوميا، فهو ذو قدرة على جذب الكبار والصغار حول شاشته، ويجمع بين الصوت والصورة، بين اللون والحركة هذا كله يجعله بيئة من أحسن البيئات الأكثر ثباتا وشيوعا فهو الموّزع الأساسي للصورة الذهنية[12].

لذلك انطلقت دراسات Gerbner في البدايات الأولى من التلفزيون كقوة مسيطرة في تشكيل المجتمع الحديث، وكانت هذه الأفكار نتيجة الجهود التي قام بها في بحث تأثيرات التلفزيون على المجتمع الأمريكي عندما اجتاحت الولايات المتحدة موجة من العنف والجرائم، لذلك ربطت بشكل وثيق نظرية الغرس الثقافي بالعنف[13].

واعتمد جربنر في نظريته على نتائج الدراسات الميدانية التي تناولت تحليل مضمون التلفزيون الأمريكي لفترة من الزمن، والتي أظهرت أن هذا المضمون شوه كثيرا من الحقائق المتعلقة بالأسرة والعمل، القيّم، التعليم والعنف والجريمة وكأنّ ضدّه المضامين تشجع الناس على توقع أشياء لا تدعو إلى التفاؤل، فإذا أخذنا العنف –على سبيل المثال- فإن التلفزيون يضخم هذه القضية بشكل يزيد من خوف الناس من ظاهرة الجريمة في المناطق السكنية التي يعيشون فيها، وعندما يشاهد الفرد كمية كبيرة من صور العنف وأشكاله المعروضة على التلفزيون فإنه يتوقع أن ظاهرة العنف قد ازدادت، وأن إمكانية تعرضه للعنف في الحي الذي يسكنه قد تصل إلى نسبة 10٪ وذلك بسبب تعرضه المستمر لمشاهدة العنف والجريمة على التلفزيون[14].

ثانيا- المضامين الإعلامية كنظام متجانس في ثقافة المجتمع: يرتبط الغرس الثقافي كعملية ثقافية بإطار متماسك من المعلومات ومعاني المفاهيم العامة التي غرسها من خلال التعرض الكلي إلى العالم الذي يرسمه التلفزيون أكثر من التعرض إلى برامج منفردة أو منتقاة حيث يشاهد كثيفو المشاهدة خليطا من البرامج أثر من قليلي المشاهدة بغض النظر عن مستويات تفضيلهم، وذلك ينتجه التشابه والتوحد في الأفكار والعناصر الدرامية التي يقدمها التلفزيون بشكل عام، فالتنوع في شكل البرامج أو بالأفار أو الصور

---

[12] مرفت الطرابيشي: مرجع سابق، ص 306.

[13] محمد عبد الحميد: مرجع سابق، ص 263.

[14] Deflen, Melvin, Ball. Rockeach : theories of mass communication ; 1989, p 263.

للمجامع والذات تعبر عن الاتجاه السائد في الثقافة ولهذا فإن استمرار هذا التماسك مرهون باعتبار نظام الاتجاه السائد في الرسائل الإعلامية هو العامل الوسط في عملية الغرس[15].

ثالثا- الغرس الثقافي مرهون بالمضامين الإعلامية: تعكس أسئلة المسح المستخدمة في بحوث الإنماء الثقافي الاتجاه السائد الذي تجسده رسائل التلفزيون كجماعات ضخمة من المشاهدين، وعلى فترات متباعدة، أما استخدام المعلومات التي تقيس أفضليات المشاهدة، أو مقاربة إجابات المبحوثين عن تفضيل هذا أو ذاك من البرامج بدلا من قياس حجم المشاهدة الكلية قد يؤدي إلى نتائج غامضة أو مضللة، ولذلك يجب أن تتجه الأسئلة نحو اعتبارات الواقع الحقيقي، ويسمى ذلك المطلب الأول للإنماء وهو يكشف عن نتائج مهمة ومشوقة.

كذلك توجد أهمية موازية للعالم الرمزي الذي يعكسه التلفزيون، ويسمى ذلك بالمطلب الثاني للإنماء –فعلى سبيل المثال- يعكس التلفزيون الأمريكي نسبة الرجال إلى النساء بواقع 3/1، رغم أن ذلك لا يتفق مع النسبة الحقيقة في الواقع، إلا أنه يتفق مع النسبة الحقيقية في الواقع.

إلا أنه يعكس الاتجاه السائد لدور الجنس والصورة النمطية التي يعمل التلفزيون على ترويجها للمشاهدين من خلال تكرار الرسائل التي يقدمها[16].

تظهر العلاقة الوطيدة بين الغرس والمضامين الإعلامية خاصة الدراما والأفلام في أن الغرس يتم وفقا عبر المراحل التالية:

أ- يلاحظ مشاهدو الأفلام والمسلسلات التلفزيونية عالما يختلف جوهريا عن العالم الحقيقي سواء من حيث مضامين الأحداث سواء من حيث الأدوار الاجتماعية.

ب- يخوض شديدو الاستهلاك للتلفزة (مشاهدو الشاشة الصغيرة) لمدة أربع ساعات في اليوم على الأقل، تجربة تزحزح للواقع أي أنهم يتأثرون في إدراكهم الحسي للواقع العامة التي تقدمها البرامج ككل، حيث يهتم عالم التلفزيون ببناء الأفكار ونماذج التفاعل الاجتماعي، وتقديم النماذج الاجتماعية ليعبر عن الثبات، الاستقرار والتماسك في الحياة والعالم، وهذا هو أساس هدف عملية التحليل الثقافي.

---

[15] محمد عبد الحميد: مرجع سابق، ص 268.

[16] حسن عماد مكاوي، ليلى حسن السيد: مرجع سابق، ص 306.

ويجب أن نعلم أن ثبات أو تماسك العالم الرمزي للتلفزيون يعد تعبيرا عن ثبات وتماسك الهياكل التجارية والاجتماعية والسياسية التي تحكم صناعة هذه البرامج، وبذلك فإن ترار التعرض إلى هذه العوامل البنائية يميل إلى غرس صور ذهنية ثابتة الاجتماعي بالمضامين التلفزيونية ويعبّرون عن كمية أكبر من الأجوبة التلفزيونية، بشكل اصطفائي فالمشاهدة بالنسبة لهم ضرب من الطقوس اليومية[17].

رابعا- تحليل الغرس يركز على إسهام التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى في صياغة تفكير الجمهور واتجاهاته نحو القضايا المختلفة.

إن المهمة الرئيسية لتحليل الغرس هي تحديد إلى أي مدى يمكن لرسالة معينة أن تسهم في تكوين معتقدات الواقع الاجتماعي لدى الأفراد، بطريقة تتفق مع معظم القيم والأعراف المتكررة، وكذلك الصور الذهنية التي تتضمنها هذه الرسائل، فتحليل الغرس يركز على إسهامات التلفزيون عبر الزمن في صياغة تفكير الغالبية العظمى، وبمعنى آخر تحقيق الانسجام بين أفراد المجتمع ككل، وتعمل وسائل الإعلام على تكوين تصورات الجمهور من خلال عملية التعرض التراكمي عبر فترة زمنية طويلة.

خامسا- تزيد المستحدثات التكنولوجية الحديثة من وصول الرسائل التلفزيونية إلى الجمهور: يرى جربنر أن نظر التلفزيون السلكي والمحطات المستقلة والفيديو قد أعطتا المشاهدين قدرا أكبر من التحكم في تلقي البرامج، وأن التعرض لهذه الوسائل قد يحل محل قراءة الجريدة أو الذهاب للسينما، ولا يمكن أن يحل محل التعرض للتلفزيون.

سادسا: تحليل الغرس يرتكز على النتائج الخاصة بشيوع الاستقرار والانسجام بين أفراد المجتمع.

إن الإسهام الرئيسي للتلفزيون يتمثل في قدرته على تحقيق الانسجام بين مشاهديه والتجانس بين الجماعات التي قد تكون مختلفة في خصائصها الديموغرافية أو المعرفية، وذلك ن خلال عرض الاتجاه الثقافي السائد، وأن أهمية التلفزيون كما يراها جربنر لا تأتي من قدرته على تكوين مجتمع جماهيري ولكن من قدرته على تكوين بيئة مشتركة من المعاني يعيش خلالها الأفراد ويفهمون الأحداث عن طريقها وبذلك يمكن النظر إلى عملية الغرس

---

[17] فريال مهنا: مرجع سابق، ص 266.

التي يقوم بها التلفزيون على أنها حالة خاصة من حالات التنشئة الاجتماعية التي من خلالها نصبح أعضاء في المجتمع وجزء منه[18]

ج-نقد النظرية:

لقد تعرضت نظرية الغرس لانتقادات حادة وأثارت نقاشات مطولة بين علماء الإعلام، وأبدى العديد منهم تحفظاته على هذا النموذج، ويمكن أن ندرج أهّم الانتقادات فيما يأتي:

1- تداخل فرضيات النظرية مع غيرها من النظريات الأخرى, كما تبدو لأول وهلة فإن نظرية الغرس الثقافي ذات صلة بعلم الاجتماع، إلا أنها تتعامل مع الآراء والمواقف والقيم التي يتبناها الجمهور على إثر تعرضه لوسائل الإعلام، وهذه النظرية متداخلة أيضا مع الفرضيات النظرية التي قامت عليها نظرية ترتيب الأولويات لأن القائم بالاتصال في هذه النظرية يرتب أولويات الجمهور بغية التأثير عليهم، وإحداث تغيير في آرائهم وموقفهم[19].

2- الغموض في تفسير متغير الوسيلة والجمهور: لقد أثار بعض الباحثين الشكوك حول تفسير الرسالة التلفزيونية وحول جدوى العلاقة السببية بين المعلومات المتعلقة باستخدام التلفزيون وبين الدراسات المسحية التي اهتمت بدراسة الآراء، لأن الدراسات المسحة التي تناولت تأثير هذه النظرية أجراها باحثون أمريكيون وطبقوها ميدانيا على عينة من وسائل الإعلام، وعلى عينة من الجمهور الأمريكي، وكل من هذين المتغيرين "الوسيلة والجمهور" لهما خصائص تميزها عن غيرها إذا ما حاول باحث آخر، ومن مجتمع آخر أن يتناولهما في دراسة تطبق في مجتمع آخر غير المجتمع الأمريكي، لأن المضمون يختلف واستخدام الجمهور للوسيلة الإعلامية يختلف أيضا لذلك عندما طبقت هذه النظرية في مجتمعات أخرى اختلفت النتائج ولم تثبت الفرضية التي قامت عليها.

ومن الدراسات التي سارت في هذا الاتجاه المعاكس لمضمون الفرضية، الدراسة التي أجراها WOBOR عام 1978 عن العنف المتلفز وعلاقته بنظرة البريطانيين لمجتمعهم، حيث أظهرن نتائجها عدم علاقته بنظرة البريطانيين لمجتمعهم وعدم تأييدها للفرضية التي قامت عليها نظرية الغرس الثقافي.

---

[18]مرفت الطرابيشي: مرجع سابق، ص 309.

[19]محمد بن سعود البشر: مرجع سابق، ص 30.

كما تتفق مع هذه الدراسة النتائج التي خلص إليها DOOB, MC DONALD عام 1979 عندما تناولا هذه الجدلية وطبقاها على عينة من المجتمع الكندي[20].

لأن عملية التحقق من دقته في سياقات اجتماعية لبلدان أخرى غير الولايات المتحدة (إنجلترا أستراليا، السويد، وهولندا) لم تؤكد النتائج التي وصل إليها جربنر وفريقه، وهذا يعني أن صيرورة الغرس تتحدد ضمن سياقات تلفزية وثقافية واجتماعية مؤطرة بدقة ولا يجوز تعميمها بشكل غير تمييزي[21].

3- هذه النظرية لم تستطع أن تنشئ علاقة بين التعرض الكثيف للتلفزيون والخوف من العنف بالرغم من أن الاثنين يرتبطان، لكن التداخل والتفاعل بينها ليس كبيرا ليمكن الباحثين من التنبؤ بوجود خوف شديد على ضوء معرفة درجة كثافة المشاهدة فالعلاقة هنا غير وطيدة.

4- انتقد هيرش جربنر وزملائه لعدم تحري الدقة في تحليل البيانات التي حصلوا عليها وتقسيم الجمهور إلى كثيفي المشاهدة وقليلي التعرض، وذلك لعدم مقدرتهم على السيطرة على مصادر الاختلافات الخارجية[22]

---

[20] المرجع نفسه، ص 32.

[21] فريال مهنا، مرجع سابق، ص 267.

[22] مرفت الطرابيشي: مرجع سابق، ص 315.